ولانطاب ذكرى لمهد تفرقت
أماسيه ما بين النوائب والنجب
نزلت على الوادى فلا الزهر يانع
ولا حضر السمار .. والسمر المذب
بل الشمس قتماء وفى الأفق وحشة
وللبدر إطراق ودون المنى حجب
هى النائبات السود أظلم وجهها
وكانت ذكاء لا يحس لها غرب
فنى جانب الوادى وفى منحنى الحمى
نفوس تولتها المصائب .. والكرب
لحى الله خطبا قد ألم فروعت
مطالعه زغب الحواصل لم يحبوا .

• • •

هذا وفى الديوان قصائد ممتازة أخرى لا وقت لدينا ولا لدى القارئ لاستيعابها جميعا .. وعسى الله أن يهدى النقاد عندنا فيعملوا من أجل الشعر والأدب ، لا من أجل الشعراء والأدباء

دهوك — سامي أمين

تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

الواقعية الفنية :

هناك نوع من الأدباء يحيرنى إذا ما حاولت أن أتحدث عنه: هل أصفه بأنه لا يجيد القراءة ، أم أصفه بأنه لا يحسن الفهم ، أم أصفه بأنه يجهل أصول التفكير وطرائق التعبير ؟ إذا أطلقت عليه كل هذه النعوت فاعذرنى .. لأنه يحيرنى ! ولست والله غاليا إذا قلت لك إن هذا النوع من الأدباء يستطيع أن ينطقك عالم تنه به ، وأن ينسب إليك مالم تهدف إليه ، وأن يناقشك بعد هذا كله فى الموضوع طبقا لمزاجه هو لا طبقا لمزاجك ، ووفقا لهواه هو لا وفقا لهواك ، ولا بأس عليه أبداً من أن تفغر فاك من الدهشة ما دام هو قد فغر فاه ليتثاءب ، منتظراً أن تقول له محييا بعد نشوة السبات العميق .. صح النوم وطابت الأحلام يا صاحب المزاج الرقيق !

من هذا النوع من الأدباء ذلك الأديب العراقى الذى كتب عن « الواقعية الفنية » فى العدد (٩٤٨) من الرسالة ، معقبا على رأى لى كنت قد سجلته حول هذه الواقعية منذ أسابيع .. لقد ذكرنى الأديب العراقى وهو يعقب على أفكار لم تخطر لى على بال ؛ ذكرنى بقصة ذلك الزعيم المصرى الذى قيل له إن أجر العامل قد يبلغ فى اليوم جنيها فى السويد ، فهتف وهو لا يملك شعوره من دفقة البهجة ولا لسانه من غلبة السرور : عظيم !.. عظيم جدا !.. عظيم والله أن يحصل العامل على مثل هذا الأجر فى السويس !

لا فرق أبدا بين فهم هذا النوع من الأدباء وبين فهم هذا الزعيم « الفهيم » .. تتحدث عن السويد فيحسبونها السويس، وعن الإسكندرونة فيتوهمونها الإسكندرية ، وعن النيل فيتخيلونه الدردنيل ! ثم لا يقفون عند هذا الحد من الغفلة ولا يقنعون بهذا الحظ من الذهول ، ولكنهم يجدون الجرأة العجيبة على التهجم عليك مفترضين أنهم على الحق وأنك على الباطل ، ولا يتحرج منطق الغافلين والذاهلين من أن يقدم إليك الدليل !

يقول الأديب العراقى الذى يمثل هذا المنطق أو يمثل ذلك النوع من الأدباء : « ويحضرنى الآن رأى للأستاذ المعداوى فى العدد (٩٣٩) من الرسالة إذ قال : الواقعية ضربان ، واقعية أولى ويكون فيها نموذج الشخصية موجودا (بالفعل) فى الحياة، والواقعية الثانية ، ويكون فيها نموذج الشخصية موجودا (بالإمكان) ولم يقف الأستاذ المعداوى عند هذا الحد ، وإنما ذهب إلى تعريف الواقعية الأولى فقال : (هى نقل مباشر لصور الحياة وطبائع الأحياء ، كما هى فى الواقع الحسى التى تلمسه العين وتألفه النفس) ، ولو وقف الأستاذ عند قوله : (إنها نقل

مباشر لصور الحياة وطبائع الأحياء) لهان الخطب وما جعل ذلك النقل مقيدا (بما تلمسه العين وتألفه النفس) ، كما أنه لو احترس الأستاذ فى قوله وقال : (إنها نقل مباشر لصور الحياة وطبائع الأحياء ، كما هى فى الواقع الملموس الذى تلمسه عين الفنان وتألفه نفسه) بدلا من إطلاق (العين والنفس) التى تدعو إلى جعل الفن ضربا من ضروب العبث ، كما يجعل — هذا الإطلاق نفسه — الفنان والرجل العادى فى كفة متساوية من حيث الإحساس ، أقول لو قال الأستاذ (عين الفنان ونفسه) لسهل الأمر وما دعانا إلى الولوج فى دهاليز الظلمة والجهل ، وهو يقصد الإيضاح والإعلام » !

أرأيت إلى هذا الفهم العظيم الذى يذكرك بقصة السويد والسويس ، والإسكندرية والإسكندرونة ، والنيل والدردنيل ؟! أرأيت إلى هذه اللغة الفينيقية التى لا يستخدمها غير (الأسبانذة) الراسخين فى العلم ، والمتضلعين من الفن ، والمتمكنين من مناهج التفكير ! لقد انتهى الأديب العراق بأنى أدعو إلى جعل الفن ضربا من ضروب العبث ، وأدفع بالقراء إلى دهاليز الظلمة والجهل بدلا من دهاليز الإيضاح والإعلام !! ألا ترى أنه فهم عظيم .. على طريقة ذلك الزعيم الفهيم ؟! لقد قلت عن « الواقعية الأولى » أنها نقل مباشر لصور الحياة وطبائع الأحياء ، كما هى فى الواقع الملموس الذى تلمسه العين وتألفه النفس .. قلت هذا فتوهم الأديب العراق أن كلمة (النقل المباشر) معناها (النقل الفوتوغرافى) كما نص على ذلك فى موضع آخر من مقاله ! وتخيل أن (العين) التى أقصدها هى عين بائع الفجل والبصل والخيار ، وأن (النفس) التى أعنيها هى نفس بائع اللب والحمص والفول السودانى !! تصوروا يا قراء الرسالة كيف يدعو المداوى إلى جعل الفن ضربا من ضروب العبث ، وكيف يدفع بالقراء إلى دهاليز الظلمة والجهل العميق ؟! معذرة إذا تصورتم هذا كله مادام الفهم (العابث) الذى يتمتع به الأديب العراق قد أظهر لى أمامكم على هذه الصورة العزيزة المنال والفريدة المثال ، ومعذرة مرة أخرى إذا ما كان فى الأدباء مثل تلك النماذج العقلية التى تعيد علينا قصة السويد والسويس ، أو قصة الإسكندرية والإسكندرونة ، أو قصة النيل والدردنيل !!

النقل المباشر لصور الحياة هو النقل الفوتوغرافى لصور الحياة؟ من يصدق أنى كنت أرمى لهذا المعنى وأهدف نحو هذا التفسير؟! عيب هذا النوع من الأدباء أنه يقف عند المعنى المادى للكلمة ولا يكاد يتعداه ، ويدور حول الهيكل العظمى للفظ ولا يكاد يتخطاه ، مثله فى ذلك مثل ذلك النوع من القادة والحاكمين ، أولئك الذين يتوهمون أن كل حديث عن العدالة الاجتماعية ضرب من اعتناق الشيوعية !! إنى عندما أقول عن « الواقعية الأولى » إنها نقل مباشر لصور الحياة وطبائع الأحياء ، فإنما أعنى النقل الأمين ، النقل الصادق ، النقل الواعى ، النقل الذى لا يجوز فيه الوهم على الحقيقة ولا يطغى الخيال على الواقع ! هذا هو النقل الذى أعنيه ، النقل الذى يجعل الفن يتصل بالحياة اتصالا مباشراً ، وثيقا دقيقا ، ليعكس على مشاعرنا كل مافيها من نبض وخفوق ، النقل الذى قلت عنه يوما على صفحات الرسالة وأنا أتحدث عن بعض الأعمال الفنية للأستاذ توفيق الحكيم : « إنك عندما تقرأ أعمال الحكيم الأولى التى سجلها ليصور بها تلك البيئات التى عاش فيها بالجسم والفكر والروح والحواس تلمس أن الحياة كانت تتنفس تنفسا عميقا فى فنه ، وأن عدسة القصاص قد بلغت من دقة اللقطات مالا يتهيأ إلا لكل فنان مفتوح العينين والقلب والذهن ، إقرأ مثلا « عودة الروح » و « يوميات نائب فى الأرياف » تحس أن الحياة فيهما تكاد تنتفض بين يديك وتتحرك أمام ناظريك ؛ تنتفض بمواكب لا تحصى من الصور النفسية والنماذج البشرية ! لقد كانت العدسة البارعة تنتقل من الشوارع إلى الأزقة ، من المدينة إلى القرية ، من القصر إلى الكوخ : ترقب ، وتتأمل وتسجل .. وإذا حرارة التعبير قد ارتفعت لتلفح إحساسك على الورق ، وإذا لمحة الخاطر قد استحالت فكرة فى ثنايا العرض وإذا ركب الأحياء قد انتقل فى حركة نابضة إلى السطور والكلمات !

لقد كان توفيق الحكيم يعب الحياة عبا إن صح هذا التعبير ، ويوم أن كان يطل على ميدان الحياة الفسيح المترامى أمام عينيه ؛ كان يطل من نافذة مفتوحة ، هى نافذة الحواس المتحفزة لالتقاط كل ماتقع عليه من صور فى دقة ووعى وانتباه ، وهذه هى الفترات (المستيقظة) فى فن توفيق الحكيم . فترات مستيقظة نلقت

عن كتاب الحياة سطوراً فيها عمق وروح وأصالة ، فإذا « عودة الروح » و « يوميات نائب في الأرياف » صفحتان أمينتان تغمض عينيك بعد الفراغ منهما لتبدأ الحياة سيرها في دروب النفس ومسارب الشعور ، ولا بأس من أن تغمض عينيك فإن الصورة قد انطبعت على صفحة الفكر والخيال »

هذه الكلمات التي كتبتها يوما عن فن توفيق الحكيم في أمسه الغابر ، هي التصوير الصادق « للواقعية الأولى » التي قلت عنها إنها نقل مباشر لصور الحياة وطبائع الأحياء .. ترى هل تفهم منها أنني أعني « النقل الفوتوغرافي » كما اجترأ الأديب العراقي وألصق بي هذا الاتهام ؟! إنني يوم أن كتبت عن « الواقعية الأولى » وقلت عنها ما قلت ، لم أشأ أن أكتب « مذكرة تفسيرية » لكلمة « النقل المباشر » كما يفعل رجال القانون ، لأن مقالاتي السابقة حول هذا المعنى على صفحات الرسالة كانت تغنيني من الشرح وتغني القراء عن التفسير ! ترى هل يحتاج الأديب العراقي إلى نموذج آخر مما كتبته من قبل في هذا المجال ؟ لا بأس من تقديم هذا النموذج الآخر على سبيل المثال :

لقد كتب إلي يوما أديب من حضرموت ليعرض علي موضوع قصة أخرجها أحد الأدباء هناك ، كتب يقول في ختام كلمته : « هذه صورة تقريبية لفصول القصة ، وحيث تنتهي تبدأ قضية النزاع والاختلاف ، فيرى البعض أن تتلاحق فصول القصة كمأساة حتى الشوط الأخير ، بينما يرى البعض الآخر ومنهم المؤلف أن الله وهو أعدل العادلين لن يجعل لمثل هذه « المأساة » صورة ما ، في عالم تجري حوادثه على قوانين طبيعية عادلة .. هذه هي نقطة الخلاف عرضناها عليكم بكل أمانة راجين أن ترشدونا برأيكم » !

وقلت معقبا على القضية المعروضة علي في انتظار الجواب : « أود أن أقول للأديب الحضرمي إن هذا الجدل الذي دار بين جماعة من أصدقائه جدل غريب . ومصدر الغرابة فيه أن أصحاب الرأي الأول يريدون أن يطبعوا موضوع القصة بطابع المأساة ، وأن أصحاب الرأي الثاني يريدون أن يخضعوا الموضوع لعدالة الله .. وكلا الرأيين بعيد عن جوهر الفن القصصي لأنه يمثل منطق القائلين به أكثر مما يمثل منطق الوقائع الطبيعية !

جوهر الفن هو أن نستوحي الحياة وحدها عندما نريد أن نخلق عملا من الأعمال الفنية ، والقصة كعمل من هذه الأعمال لابد أن تخضع لمجرى الحياة في صورتها الواقعية التي لا تنكرها العين ولا يرفضها العقل ، فالحياة التي ترفرف عليها عدالة الله فيها الخير وفيها الشر ، وفيها الفضيلة وفيها الرذيلة ، وفيها السعادة وفيها الشقاء ، وفيها ما شئت من ألوان المفارقات وضروب التناقضات ، فإذا صورنا الحياة تصويرا صادقا فمن الطبيعي أن نقبل المأساة المستمدة من واقعها كما نقبل الملهاة ، على شرط أن يكون عرضنا لهذه وتلك مسايرا لمنطق الحوادث المألوفة ومطابقا لطبيعة الأمور كما يألفها الأحياء !

خذ موضوع القصة من هذا الوجود المتحرك أمام ناظريك ثم اخلع عليها بعد ذلك من ألوان الفن ما يبعد عنها صفة الجمود الذي لا يتفق مع الحركة ، ونزعة الخيال الذي لا يلتقي مع الواقع ولا مبرر بعد ذلك لأن تفرض على موضوع القصة أن يسير في هذا الطريق دون ذاك ! إن الحياة هي التي ترسم خط السير ، وتقرر غرض الاتجاه ، وتحدد طبيعة الموضوع . أعني أننا يجب أن نقتفي أثر الحياة في كل خطوة من الخطوات . وكل نقلة من النقلات .. ثم نسجل ما شاهدناه كما يحدث في الواقع المشهود أو كما يحدث في الواقع الذي يمكن أن يكون . فإذا كان مجرى الحوادث في القصة لا يضيق بشبح المأساة فلا ضير من توجيه دفتها نحو هذا الذي نبتغيه ، فإذا ضاق بها فلا حاجة بنا إلى أن نحمل الحياة فوق ما يمكن أن تطيق » !

أرأيت مرة أخرى إلى حقيقة النقل المباشر الذي أعنيه ؟ لقد عمدت إلى نقل هذا النموذج الآخر بالذات لأرد به على فقرة أوردها الأديب العراقي في مقاله ليغدق علي من علمه الغزير ! قال حضرته وهو يحاول أن يفهمني حقيقة الواقعية الفنية بكلمات سبقته بمثلها منذ عامين : « والواقعية الفنية لا تبعدنا عن حياتنا — كما يظن — بل هي الواقع المحس قد داعبته أنامل الفنان ، وقد يرسم الفنان — الشاعر أو القصاص — صورا ماثلة في الواقع ، رائعة حقا ، وقد لا تكون كذلك .. كما يلزمنا أن

تكون تلك الصورة المنقولة سامية حسنة جميلة ، بل كل مايطالبه الفن نقل الصورة نقلا فنيا ، وكل مايطالبه الواقع نقلها بأمانة ! »

أليست كلماته التي وضعت تحتها الخطوط هي من حيث المعنى نفس كلماتي التي وضعت تحتها مثل تلك الخطوط ؟! يا عجبا .. لقد كتبت تلك الكلمات منذ عامين ثم جاء الأديب العراقي فكتب مثلها منذ أسبوعين ، ومع ذلك يتهمني بأني أنظر إلى الواقعية الفنية على أنها النقل الفوتوغرافي .. ويحاول أن يلقي على بعض الدروس !! هذا هو « الواقعية الأولى » أو الواقعية الفنية ، وإذا كان الأديب العراقي قد نسب إلى في موضع آخر من مقاله أني أقصد بالنقل المباشر لصور الحياة ذلك « التقليد الأعمى » الطبيعة كما ذهب إلى ذلك أفلاطون ، فإني أود أن ألفت نظره إلى أن « الفهم الأعمى » وحده هو الذي أوحى إليه بأن ينسب إلى مثل هذا القول العجيب .. ومرة أخرى أقسم له بمن علمني أصول الفن ومناهجه ، أني حين قلت (الواقع الحس الذي تلمسه العين وتألفه النفس) ، كنت أقصد العين والنفس اللتين أنعم بهما الله على القماص الحلاق والأديب المتذوق والناقد الفنان ، ولم أكن أقصد أبدا عين بائع الفجل والبصل والخيار ، أو نفس اللب والحمص والفول السوداني .. وإذا لم يصدق فلا بأس من أن أنقل إليه هذه الفقرة الأخرى من مقال آخر كتبته أيضا منذ عامين على صفحات الرسالة :

الحياة هي المنبع الأصيل لكل أثر من آثار الفن يترك ظله في النفس وبقاءه على الزمن : في أدب الكاتب ، في شعر الشاعر ، في لحن الموسيقار ، في لوحة الرسام ، لتكن الحياة نقمة أو نعمة ، لتكن مأساة أو ملهاة ، لتكن ألما أو لذة ، لتكن دمعة أو ابتسامة .. حسب الفن أن يعبر عن الحياة فيصدق في التعبير ، وأن يترجم عن رؤية العين وإحساس القلب فيسمو بالأداء » !

هذا الفن الذي يترجم عن رؤية العين وإحساس القلب في هذه العبارة ، أليس معناه العمل الذي ينتجه كل فنان ؟! وهذا القلب وتلك العين إلى من ينسبان هنا في رأي الذين يفهمون ؟ ألا ينسبان إلى ذلك الذي ينتج كل عمل يسلك في عداد الفنون ؟! إن الذئب ليس ذئبي كما رأيت ، ولكنه ذئب الذين يحسبونها السويس وهي السويد ، ويتوهمونها الإسكندرية وهي الإسكندرونة ، ويتخيلونه النيل وهو الدردنيل .. وهلم جرا أو هلم جرجرة كما كان يعبر الرافعي رحمه الله !!

هل انتهى العجب ؟ كلا ! وكيف ينتهي ونحن نتحدث عن الواقعية في القصة فينقلنا الأديب العراقي إلى الواقعية في الشعر ، ويأتي لنا بنموذج من شعر « هوسمان » لينساءل : هنا واقعية .. ولكن هل هي من النقل المباشر الذي تلمسه العين وتألفه النفس؟ لو كان حضرته يعلم أن الواقعية في الشعر غير الواقعية في القصة لما أرقع نفسه في هذه « اللخبطة » الطريفة .. ترى هل يريد أن يعرف الفارق بين الواقعية هنا والواقعية هناك ؟ عليه أن يرجع إلى هذا المقال وإلى المقال الآخر الذي عقب عليه ليدرك طبيعة الواقعية القصصية ، وعليه أن يرجع مرة أخرى إلى مذهب « الأداء النفسي » على صفحات الرسالة ليفهم حقيقة الواقعية الشعرية ، فإذا لم يستطع أن يلمس هذا الفارق فليكتب إلى لأمسك بالقلم من جديد !!

أنور المعداوي